اللّيل في قصائد إبن خفاجة

أ.م.د. كوران صلاح الدين شكر
جامعة صلاح الدين كلية اللغات

الملخص

يتناول البحث قصائد الشاعر الأندلسي المشهور بأوصافه ونظرته الجميلة إلى الحياة والطبيعة وكيفية معالجته للطبيعة وإشراكه في قصائد الوصف والطبيعة في نسق معين بعيد عن التعقيد والغموض وفي أسلوب بسيط قريب المأخذ. ولقد أشرنا إلى حديث الشاعر عن اللّيل ومعانيه واستخدام الشاعر له في الأغراض الشعرية المختلفة, فاللّيل عند الشاعر بمعانيه يختلف في المديح عن الرثاء ويختلف في الوصف عن الغزل ومن أجل ذلك أوردنا أمثلة مختلفة من قصائد الشاعر حتى تكون الصورة أكثر وضوحا وقربا إلى القارئ.

المقدمة

كان لظهور الشعر في الأندلس ظروف تختلف تماما عما كانت عليه الظروف في المشرق العربي ولكن ظل الشعر العربي في الأندلس على أثر الشعر المشرقي في أمور كثيرة لأن المشرق كانت له مكانته المرموقة في قلوب الأندلسين. إذ أن العرب بعد أن استقروا في الأندلس، ورحل إليها شعراؤهم بدأوا بالنسج على منوال الشعر المشرقي , فكان الشعراء متعلقين بالشعر المشرقي, و متأثرين بكل جديد فيه, والتقليد كان غالبا أكثر الأمر في الأندلس فألقاب الشعراء ومعارضاتهم لشعراء المشرق خير دليل على ذلك. وظل الاندلسيون يولون وجوههم شطر المشرق في أكثر شؤونهم, لأنه مطلع أنوارهم, ومهد حضاراتهم, ولأنهم يرون في أهله المثل الأعلى الذي ينبغي أن يقتدى به[١]. فان الذوق الأندلسي قد تربى على تقدير شعر المشارقة المحدثين، حتى ميز نقاد الأندلس بين طريقتين في الشعر: طريقة العرب وطريقة المحدثين، ومالوا إلى الثانية وحاكوها، ومثال على ذلك كيفية إنشغالهم بتدارس ديوان أبي تمام ومسلم بن الوليد والبحتري، وكيف كان ديوان أبي تمام على وجه الخصوص محط اهتمامهم الأكبر. فمن الخير هنا أن نتلمس جوانب هذا التأثير الذي تلقاه الشعر الأندلسي من شعر المشارقة المحدثين. سيما وأن الأثر يمتد في اتجاهين: الأول أثر في الموضوع والثاني أثر في الشكل والطريقة الشعرية، أما الأول فتبيانه ليس بالأمر الميسور، وأما الثاني فانه على صعوبة تمييزه أظهر من الأول[٢]. وعلى الرغم من كل ذلك لابد من الإشارة إلى أن هذا التقليد لم يمنعهم من الإبداع و الإبتكار, فالشعر كان يمثل أحد جوانب الحضارة العربية الأندلسية, حيث عبر عن قوالب تلك الحضارة وعن مضمونها سيما وأن الشعر كان يمثل الإنعكاس الحقيقي لواقع المجتمع العربي في تلك البقعة.

كان تطور أغراض الشعر العربي في الأندلس متزامنا مع تطور الأغراض الشعرية الأصلية الموجودة في المشرق ومن أهم الأغراض الشعرية التي طرأ عليها التطور شعر الطبيعة, فقد كان وصف الطبيعة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي من الأغراض الشعرية المهمة إذ وصف الشعراء صحراءهم و الحياة فيها وبعد الارتقاء الذي حصل في الحياة الإجتماعية في العصور اللاحقة سيما بعد إنتقال العرب إلى البلدان المفتوحة أضافت على وصف الطبيعة في قصائدهم وصف المظاهر المدنية والحضرية.

فإذا كان المشارقة قد سبقوا الى شعر الطبيعة, فإن شعراء الأندلس قد لحقوا بهم في هذا الفن الشعري, ثم فاقوهم فيه بالتوسع والتنوع في موضوعاته, مع كثير من دقة التصوير, والإبتكارفي معاني الوصف[٣], ومما لا شك فيه أن وصف الطبيعة من أبرز أغراض الشعر عند شعراء الأندلس, حيث تهيأت لهم أسباب الشعر ودواعيه فشغفت بها القلوب, سيما وأن الطبيعة الأندلسية كانت ساحرة ووافرة الجمال, وقد انعكس ذلك في الشعر بشكل عام, وأن الحب الجديد للطبيعة سرى في نفوس الأندلسيين. هذه الصور على العموم تأخذ عطرها وعبقها وملامحها و ألوانها من الطبيعة, فهي أقرب إلى لوحة فنية ناطقة. وإذا كان الفنان الاصيل قادرا على أن يصنع من قطعة الحجر المتواضعة تمثالا يأخذ بالألباب وينال الإعجاب فأن الشاعر يستطيع أن يصنع من بيئته المتواضعة جنة وارفة الظلال[٤]. فقد كثرت مظاهر الترف, وتعددت مشاهد الجمال, وشاعت في الحياة الأندلسية ألوان مادية استرعت انتباه الشعراء وأوحت إليهم بنقلها في لوحات من القريض.[٥] وكان التفاعل بين الفكر الانساني و عناصر الطبيعة مستمرا فقد وجد الاندلسي فيها مادة حية تشاركه احاسيسه ومشاعره, فيسبغ عليها مسحة من لون نفسيته المرحة او الكئيبة[٦]. وقد كانت الطبيعة من أهم ما جذب أنظار الشعراء الوصافين.

اللّيل في قصائد إبن خفاجة:-

يمثل شعر الطبيعة لشعراء الأندلس مدى تعلقهم ببيئتهم الجديدة, فاتجهوا يصفون صنع الله في الكون فجمال الطبيعة كان أهم باعث على قول الشعر فيها وقد تفاعل الشعراء معها في حاليهم سعدهم وحزنهم, سرورهم وأساهم وإبن خفاجة كان في مقدمتهم ملاء جمال الدنيا عنه فمال بكليته إليه[٧]. كان ابن خفاجة شاعر عصره وسمي بشاعر شرقي الأندلس, كما سمي بالشاعر الشامي ولقب أيضاً بصنوبري الأندلس لانفراده بوصف الطبيعة بشكل واسع من بين

الأغراض الشعرية الأخرى. ولهذا اقترن اسم الشاعر بالطبيعة بالدرجة الأساس فاستولت عليه روح المرح والمتاع بالحياة فأقبل على الطبيعة يتنزه في مغانيها ويتجلى من مباهجها[٨].

١-الليل في قصائده الوصفية:-

الوصف هو الغالب على أدب الشاعر كما سنأتي على ذلك فيما بعد فهو إذا مدح ابتدأ بالوصف, وانتزع من الطبيعة صوره, وإذا رثى مزج البكاء بالوصف مزجا بليغا, فتصبح دموع الباكين جداول ماء, واهتزاز أجسامهم كاهتزاز الغصن الندى. ولد الشاعرفي بلدة شقرة وهي مدينة منعزلة في شرقي الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها حيث غذت الشاعر من جمالها وأرهف حسه مما جعله شاعر الطبيعة بجميع مظاهرها فهو يصفها صامتة أو حية فالرياض والأشجار والسماء والأرض والشمس والنجوم والقمر والنهر واللّيل من المعاني التي كثيرا ما تطرق اليها الشاعر في قصائده, وله رسالة في منتزه[٩] جدير بالذكر كون الشاعر من أهم الشعراء في الوصف والطبيعة.

فقد كانت مهمة ابن خفاجة تكثيف كل تلك المظاهر التي كانت موزعة عند الآخرين, إلّا أن دور الشاعر ذهب إلى أبعد من ذلك إذ زاد في التشخيص وفي الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة واعتمد في ذلك على وسائل فنية جديدة متصلة بملكات خاصة لديه ولم يكتف بربط الطبيعة بموضوع الحب ومجالس الخمر, بل ربطها بكل الأغراض الشعرية[١٠], حيث اتصل الشاعر بالطبيعة وأشرك حواسه فيها, و خاطب الطبيعة وامتزج بها ولجأ إليها[١١], ويقول فيه المقرّي في نفح الطيب(كان أوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين, والبساتين)[١٢] وقصيدته في وصف الجبل خير شعره الذي يمثل هذه الخاصة[١٣]:-

وأرعـن طماح الذؤبة بـاذخ يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الـريح عن كل وجهة ويزحم ليلا شهبـــه بالمنـاكـــب
وقور علـى ظـــهر الفلاة كأنــه طوال الليالي مطرق فـي العواقب
يلوث عليـــه الغيم سود عمائـــهم لها مـن وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليـل السرى بالـــعجائـــــب

نجد الشاعر في هذه القصيدة المشهورة يمتزج بالطبيعة امتزاجا كاملا فهو كان يتصل بالطبيعة اتصالا وثيقا[١٤]. والطبيعة في مظاهرها الرائعة, وجمالاتها الفتانة ترافق شاعرنا في جميع الفنون التي عالجها, فهو يصورها ويشخصها صادق الحب لها, متقد العاطفة نحوها,

فالطبيعة عند الشاعر هي كل شئ, فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والإحساس, وكان يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة[١٥].

ولو أردنا أن نتحدث عن اللّيل في قصائد الشاعر لابد من الحديث عن مزج الشاعر الطبيعة في كثير من الأحيان بأغراض شعرية أخرى. فربطها أول الأمر بالرثاء ومن ثم بموضوع الفناء فبعث فيها المعاني الحزينة وتحدث إليها وتحدثت إليه ومن ثم مزجه بالمديح والأغراض الشعرية الأخرى. كان الشاعر يدرك شدة إلحاحه على الطبيعة في شعره وهو يستغرب من هذا الشأن وكان حائراً في تفسير هذه النزعة المتمكنة, فهو يقول في نفسه مستعملاً ضمير الغائب"اكثار هذا الرجل في شعره عن وصف زهرة ونعت شجرة وجربة الماء ورنة طائر"[١٦] ما هو إلّا لأنه كان جانحا إلى هذه الموضوعات, أنظر إلى قول الشاعر في وصف زهرة وهو يصفها في اللّيل[١٧]:-

وخيريـــــة بين النسيم وبينهـــــــا حديث إذا جن الظلام يطيب
لها نفس يسري مـع اللّيل عاطر كأن لـــــه سرا هنـــاك يريب
يدب مـــع الإمساء حتى كأنمـــا له خلف أستار الظلام حبيب
ويخفى مع الإصباح حتى كأنما يظل عليـــــــه للصباح رقيب

قلما نجد الشاعر يتناول اللّيل و معانيه في قصائده مستقلة و إنما نجده يمزج ويشاكل بين اللّيل وأدوات الطبيعة الأخرى وفي هذه القصيدة عندما أراد الشاعر أن يتحدث عن زهرة وصفها في اللّيل إلى جانب الزهرة فالصورة التي رسمها الشاعر كانت طريفة كل الطرافة فهو يجري حديثا بين الخيرية و ظلام كل ليلة, ثم يركز الشاعر على أريج الزهرة وشذاها الذي لا ينفح إلّا ليلاً فيخلف هذه الصورة الغزلية البارعة, على أن هناك من شعراء الأندلس من افتن بالزهرة وانفتح صدره وأرهف حسه للإعجاب بألوانه وأنواعه.

٢- الليل في قصائده الغزلية:-

تهيأت للأندلسين دواعي الغزل كالطبيعة الفاتنة بحدائقها ورياضها ومجالس اللهو والخمر والغناء والحضارة والعمران وكثرة السبي والجواري, واستطاع الشاعر الأندلسي أن يجيد التعبير عن حبه وخوالج نفسه ويصور الأجواء التي يعيشها إلى جانب اعتماد الأسلوب القديم, إلّا أن غالبية الشعراء خرجوا عن الأسلوب القديم وأقبلو على تصوير مشاعرهم وأحاسيسهم بشعر يتسم برقة الألفاظ وسلاسة التعبير ورشاقة الموسيقى[١٨]. نجد الشاعر يربط اللّيل بموضوع آخر كما فعل في أغراض شعرية أخرى فهو حسب الموضوع الأساس يتناول اللّيل سيما وأن

الأغراض الشعرية تختلف في شحناتها العاطفية باختلاف أنواعه فالأحاسيس الحزينة تعم شعر الرثاء على خلاف المديح والأغراض الأخرى ومع ذلك نجد الشاعر في أمثلة قليلة جدا تناول اللّيل كموضوع مستقل غير ممتزج مع الأغراض الشعرية الأخرى , أنظر إلى قوله في هذه المقطوعة[١٩]:-

و رداء ليل بات فيه معانقي طيف ألـــم كظبيـــة الـوعساء
فجمعت بين رضابه وشرابـــه وشربت مـن ريق ومـن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفـــرة شفقا هـناك لـــــوجنـــة حمراء
واللّيل مشمط الذوائب كبـــرة خرف يدب علـى عصا الجوزاء
ثم انثنى والسُّكر يسحب فرعه ويجر مـــن طرب فضول رداء
والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلـــة كحلت بـها زرقـاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة أُغـــرى لـها ببنفسج الظلمـــاء

بدأ شعر الطبيعة يخرج عن المألوف والمعهود وذلك بتنظيم المقطوعات التي تستوعب طاقة خيال الشاعر وتصور عطاء شاعريته غير عابئ بعدد الأبيات أو النظام التقليدي للقصيدة إلّا في حالات قليلة جدا. فالشاعر لم يترك لمحة من لمحات الطبيعة أو زاوية من زواياها أو موضوعا من موضوعاتها إلّا طرقها برشاقة و براعة وذكاء وافتنان[٢٠].

إنَّ الإنسجام والتناغم الموجود في وصف اللّيل في المقطوعة السابقة يدل على براعة الشاعر وإمكاناته في الوصف إذ إن اللّيل في شدة ظلامه كأنه طيف خفيف الظل, كما هي خفة الظبي على الرمال حتى وأنه يمثل الطيف بالشراب والخمر في اللذة والنشوة, إذ إن القبلة للخد الأحمر تأتي ساعة الغروب مع اقتراب اللّيل سيما وأن اللّيل دائما كان ملجأ للعشاق والمحبيين. وفي مشهد رائع بديع يصف لنا انتهاء اللّيل وقدوم النهار إذ الانتهاء تمثل بالسحب أي الانسحاب طوعا وترك المجال للنهار مشبها نهاية كل ليلة بنهاية حياة ونهاية إنسان, فهو يشبه اختلاط البياض بالسواد ساعة الشفق بالشيب عند كبار السن, فهو واهن العظم مشتعل الرأس وقد فاح من نداه وشذاه ما عطر الأجواء, كما تفوح الطبيعة بعد المطر وفي ختام القصيدة يترك الشاعر نور الفجر لنور طيف الحبيبة وقت السحر, وقد فتن بليل مظلم وطيف خيال من محب مفارق. وصف الطبيعة في هذه المقطوعة لم يكن بعيدا عن الامتزاج والانسجام بالأغراض الشعرية الأخرى. فاللّيل قد اقترن ذكره بالغزل والمديح والرثاء والوصف في مقطوعات كثيرة كما

خلى ذكره سابقا وسنعود إليه لاحقا في وصف اللّيل في الأغراض الشعرية الأخرى وعلى الخصوص في المديح والرثاء. أنظر إلى هذه الابيات قالها في الغزل واللّيل[٢١]:-

وقوراء بيضاء المحاسن طلقـــة لبست بهـا اللّيل الــبهيم نهــارا
يزر عليها الصبح نورا قميصه وقد لبس الــجو الظلام صدارا
هززت لأغصان القدود معاطفا بها ولرمـــان النهود ثمـــــارا
فسقيا لأيام هنــاك تقـــلصـــت ذيولا على حكم الشباب قصارا

من الأمثلة الرائعة والرقيقة التي عبر فيها الشاعر عن رقة مشاعره وقوة خياله وقدرته على التلاعب بالمعاني والكلمات كما سنأتي على ذلك لاحقا في الأغراض الشعرية الأخرى التي تناول فيها الشاعر اللّيل, إذ إن ليله صار نهارا لسعادته وسروره لملاقاتها و هناك تشبيه للّيل والنهار في البيت الثاني ويعود إلى التغزل ووصف القامة والقد والثدي فيأتي ليبارك الليل التي تقصر بملاقتها أي ملاقاة الحبيبة وجمالها. غزل الشاعر كان بعيدا عن عيون الناظرين والحاسدين فمسرحه اللّيل حيث اللقاء والعبث واللهو والخمر, فالمزج بين الطبيعة والخمر والمرأة في هذا المثال كان الطريق الى وصف اللّيل[٢٢]:-

نادمتها ليلا وقــد طلعت بــه شمسا وقــد رق الشراب سرابــا
وترنمت حتى سمعت حمامة حتى إذا حسرت زجرت غرابا

شبه الشاعر الحبيبة هنا بالشمس في ظلمة اللّيل, استخدام الشاعر هنا للّيل ما هو الا استخدامه للضد حتى يقترب المعنى من حقيقة أوصاف الحبيبة عنده ومدى إعجابه بها سيما وأن وسائل اللقاء بحكم السبل المتاحة كانت تقتصر على الليالي ولكن الشمس كانت تنير ظلمة اللّيل وشبه صوت الحبيبة بصوت الحمامة وشعرها الأسود بسواد الغراب, وإن كان التشبيه غريبا في سواد الشعر بالغراب إلى الصوت الرقيق المشبه بصوت الحمامة لكن المغزى سواد الشعر والمعنى موصول, ويقول الشاعر في قصيدة أخرى[٢٣]:-

جمعت ذؤابته و نور جبينه بين الــدجنــة والصباح المشرق
وسوداء تدمى بــه مـــنحرا كما اعترض اللّيل تحت الشفق
وأقسم لــو مثلـــت ليلـــة لعفت الـــكرى واستطبت الارق

هذه مقابلة بين الضدين الظلمة والنور فذؤابته دجنة مظلمة وفي المقابلة جبينه مشرقة كالصباح, سوداء ولكن احمرار رقبتها تناظر اللّيل وهو يعترض الشفق الاحمر, ولوجاءت هذه المحبوبة ليلا طيفها فقط, لكان السهر أحب إليه, ولكره النعاس, وأحب الارق كي يأنس بها

فهي في اللّيل تظهر سوداء, ولكنها بيضاء كبياض الصبح في النهار فهي سوداء الظاهر, بيضاء حقيقة. وفي غزلية أخرى يقول الشاعر[٢٤]:-

يقراء واللّيل مـــدلـــهـــم لنور إجلائـــه كتـتابـا
ورب ليل سهرت فيـــــه أزجر من جنحه نكابا
حتى إذا اللّيل مال سكرا وشق سربالـه وجـابـا
وحام من سدفه غـــراب طالت بـه سنه فشابا

نجد المعنى نفسه قد أستخدم في هذه المقطوعة فاللّيل ذكر هنا لجعل نور الحبيبة أكثر وضوحا وقوة, إذ إن التشبيه فيما سبق كان بالشمس اما في هذه المقطوعة كان ابعد من ذلك, وفي الوقت نفسه عندما كان الشاعر بعيداً عن –اللّيل– لازمته النكبة والمصائب التي تنقطع بمجرد بزوغ الفجر وانشقاق الصباح. وفي قصيدة أخرى يصف ابن خفاجة غلاما يقدم له الخمر في الدجى وقد بهر بجماله[٢٥] :-

واللّيل ستر دوننا مرســـل قـد طرزته أنجم حمر
أبكي ويشجيني ففي وجنتي ماء وفـي وجنته خمر
وبات يسقيني تحت الـدجى مشمولة يمزجها القطر
وابتسمت عـن وجهه ليلـة كأنه فـي وجههـا ثغر

استخدم الشاعر هنا معنى آخر للّيل فإلى جانب كونه مهربا وملجأ للعشاق والأحبة أصبح سترا تحت غطاء جميل من زينة الكواكب والنجوم اللامعة, فالحبيب يبكي من الحزن فالماء يجري على وجنته سيما و أن حمر الوجنة للحبيبة تشبه الخمر, فالصورة تتابع حتى تصل إلى اسقاء الحبيبة له من الخمر والسكر من وجنتها. أما زينة اللّيل في هذا البيت فكانت عينا الحبيبة وخدها فهي كالثغر في وجه اللّيل. صورة اللّيل تتكرر في معظم قصائد الشاعر الغزلية وتكاد الصور جميعها تتشابه وتقترن بصورة الصباح, حيث يقول في قصيدة أخرى[٢٦]:-

ورب ليـــل بالغميم أرقتهـــا لمرضى جفون بالفرات نيام
يطول علي اللّيل يا أم مالك وكل ليالي الصب ليل تمـام

هناك انسجام في قصائد الشاعر بين الأغراض المختلفة وتخالط في نسق معين وإن كانت هناك حالات خرج فيها الشاعر عن المألوف والمرغوب إذ إن هذه الابيات قيلت في العشق والحب والغزل وهي في أضعف الاحتمالات لمن لا يعرف كنه قصيدتها أبيات نسيب قدمت لقصيدة مدح على ما ألمحنا قبل قليل, ولكن نندهش حينما نكتشف أنها في حقيقتها ليست إلّا

استهلالاً لقصيدة رثاء فيها ملامح الطبيعة وومضات قصف وشراب, ومناجاة للسكارى والندمان[٢٧]. إذن وصف الطبيعة في هذه القصيدة جاءت عن طريق وصف الليالي التي قضاها الشاعر في سهر ومنادمة وحب وإن كانت القصيدة في الرثاء. ويقول في غزلية أخرى[٢٨]:-

وليل طرقت المـــالكية تحتـــه أجد على حكم الشباب مزارا
فخالطت أطراف الأسنة أنجما ودست لـهالات البدور ديارا
فلم يك إلّا رشفــة واعتناقـــة ويعجبنـــي أنـــي أعـف ازارا

لقد كان اللّيل ملجأ الشاعر لكي يحقق ما كان يصبوا إليه كعادة الشباب حينما رأى النساء اللواتي رغب في لقائهن خلسة في ظلام اللّيل ولكن مع ذلك ظفر بهن, وترك الظفر بهن لا يظر به فبعد التقبيل والمعانقة انصرف من خشية افتضاح أمره والمعنى هنا قد يوحي لنا أن الشاعر إنما كان يخشى عاقبة أمره وهو يعانق ويقبل سيما وهو يصرح بخشية افصاح أمره و يقر بعدم الإغلال في المتعة حدا يقل معه الرجوع والتوبة. فأراد الشاعر من سياق القصيدة نعلم أنه لم يكن مرتاحا من لقاءاته اللّيلية فيتعذر بعقلية الشباب من أجل ما قام به ويعود ليؤكد لنا أنه لم يفعل شيئا يفضح به ويقول أيضاً[٢٩]:-

ومغرد هزج الغناء مطرب يلقـــى به ليل التمام فيقصر
سفر الشباب لنا به عن غرة يرمى بها ليل السرار فيقمر

بما أن اللّيل يدل على الظلمة والوحدة والوحشة فإنه يدل على مراتع اللهو والمرح والنزوح إلى الحبيبة من طرف آخر, فاللّيل وإن كان طويلاً فإن صوت الغناء جعله مقمراً وقصيراً, حيث السرور والترنم. أبدع الشاعر في الربط بين وجه اللّيل من حيث الوحدة والوحشة من جهة واللهو والمرح من جهة أخرى بشكل رائع وبديع سيما وأن اللغة السائدة في وصف اللّيل في القصائد الغزلية عند الشاعر تسود فيها نغمة الحب واللهو واللجوء والمرح, أنظر وهو يقول في قصيدة أخرى[٣٠]:-

ورب ليلة وصل قد لهوت بها مغازلاً فلقاً أو شاربا شفقا
لا ننثر الدّرّ فيه بيننا كلمـــاً حتى أقبّله من مبسم نسقا

يتحدث الشاعر عن ليلة اللقاء, ليلة اللهو والمغازلة والحب الذي التقى فيها الحبيبة التي لم تنثر الدر ليلها إلّا بعد القبلة والثغر مليئة بالدر المنسق. بمعنى آخر ليل الشاعر جميل بلقاء الحبيبة ورؤية جمالها وحلاوتها و تستمر الحالة هكذا إلى أن تتنفس الصبح وتنشق الشفق ويطلع الفجر.لقد استخدم الشاعر معنى انتهاء الليل و الحياة واللهو والمرح في قصائد

الوصف وكأن الشاعر أراد من هذا المعنى يشير الى زوال كل شيء مرغوب وغير مرغوب في الحياة. وفي قصيدة أخرى كتبها يطلب منه السلطان أن يستفتحها بالغزل فقال وذكر ما كان من أمر العسكر وكتب فيها قائلا[٣١]:-

قل لمسرى الريح من إضم	ولياليـنا بـــــذي سلـــم
طال ليلي في هوى قمــــر	نام عن ليلي ولـم أنـم
وأبـي حيّـاه مـــن رشـــا	مستطاب اللثم والشيم
ولــئن راودت مـــــن سنة	لبما أرتاد مـــن حــلم

يستفتح الشاعر قصيدته بذكر واد الأحبة في المدينة و ليالها الجميلة الطيبة, فالحبيبة قمر في ليله جمالا ونورا, فاللّيل عند الشاعر أكثر من مرتع اللهو والحب والغزل.سيما وأن استعادة ذكر الحبيبة والالتقاء بطيف خياله واسترجاعه في المنام هذا مما كان يدفع بالشاعر إلى النوم وإن كان لايحب النوم ولايطلبه. هناك قصائد كثيرة قالها الشاعر في الوصف مخالطا ذلك بالغزل مستخدما فيها اللّيل بشكل واضح ليعبر عن غزله في نسق معين من الوصف للطبيعة.

٣- الليل في قصائده المدحية:-

كما ذكرنا إلى جانب قصائد الوصف استخدم الشاعر الأغراض الشعرية الأخرى ليعبر بها عن جمال طبيعة الأندلس, فقصائد المديح أيضاً كانت من أهم الأغراض الشعرية التي كثر فيها وصف الطبيعة الأندلسية وخصوصا الصامتة منها, حيث يقول الشاعر وهو يمدح قاض القضاة[٣٢]:-

لو شاء نسخ اللّيل صبحا لانتحى	فمحــا سواد اللّيلـــة اللّيــــلاء
تثني به الريح المكارم خوطــــة	في حيث تسجع ألسن الشعراء

نجد هنا الفرق في استخدام الشاعر للمعاني التي يدل عليها اللّيل في استخدامه في غرض شعري آخر فبعد أن كان اللّيل ذا مغزى وهدفاً معيناً في قصائد الغزل أصبح هنا عاملا من عوامل المدح للممدوح بشئ معين سواء كان بحسنه وإطلالته أو بقدرته وإمكانيته أو كرمه وعطائه سيما وأن الممدوح قادر على تغيير اللّيل صبحا وتحويل الظلام ضياء وإن كان اللّيل شديد الظلام. إذن الغاية من وصف اللّيل أو ذكره في قصائد المدح هي صورة الممدوح والربط بين المعاني التي يدل عليها اللّيل وصفات الممدوح من جهة أخرى, و في ذلك الشأن قال يمدح أبا إسحاق ابن أمير المسلمين[٣٣]:-

وأشكو لو شكوت إلى مصيخ ليالي لا توقر مـن مشيب
وكنت متى استربت من الليالي فزعت إلى ثبير أو عسيب

إنَّ براعة الشاعر في تداول المعاني المختلفة لليل تكمن في اختلاف استعمالاته بين الأغراض الشعرية فبعد أن كان واصفا لليل في القصائد الوصفية أصبح ملتجأ له وساكنا فيه مع اللهو والطرب والفرح أما في المديح فللوضع تغير تماماً متجاوزاً الوصف والمرح واللهو إلى مقارنة ممدوحه مع اللّيل مفضلا في ذلك الممدوح أو الشكوى من اللّيل وما يصيبه للشاعر من الغبن والظلم و الظلام, ففي هذا المثال يشكو الشاعر من اللّيل ومن مصائبه فهو كلما شكى من الليالي فر إلى الجبال من خشيته, وقال يمدح الفقيه أبا العلاء بن زهير[٣٤]:-

خليلي مـــن حمير حدثا أخا شيبة عن ليالي الصبـا
فاذكرنا ليلـــة باللـــوى وعهداً بعصر الصبا أطربا
ليالـــي عهدي بنـا فتية وعهدي بـأحبـابنـــــا ربـربا

أصبح اللّيل معيد الذكريات ومذكراً الشاعر بالأيام الخالية السابقة بحلاوتها وطيبها سيما و أن الشاعر أراد أن يمدح الممدوح مذكراً بذلك أيامه السابقة في ليالي الجمع والأنس والإخوان والأصدقاء, وبما أن الذكريات تكون حلوة أو سيئة فإن ما يستذكره الشاعر من الذكريات هي طيبة وذي عهد الشباب والمرح التي تدل على اقتراب الشاعر من خلق جو من السعادة والفرح هذا ما كنا نقصده من الاختلاف في استخدام الليل مع اختلاف الأغراض الشعرية التي يتم فيها تداول الليل من أجل غاية معينة. وقال يمدح القائد أبا الطاهر[٣٥]:-

وخضت ظلام اللّيل يسود فحمه ودست عرين الليث ينظر عن جمر
وجئت ديار الحي واللّيل مطرف منمنم ثوب الأفق بالأنجم الـــــــزهر
ومزقت جيب اللّيل عنها وإنمـا رفعت جناح النسر عن بيضة الخدر
وقد خلعت ليلا علينا يد الـهوى رداء عنـــاق مـزقتـه يـد الـــفجر
ولما تجلى ضوء صبح كأنـــه مشيب بفود اللّيل طالع مـــــن قطـــر
ولا لـــيل إلّا بالثويـــــتة أقمـــــر تنفس فيه السكر عـــن نفحة الشكـر
وحلت به الآمال وهي شريفـة محل ليالي الصوم مـــن ليلة الـــقدر
فلو مسحت يمناه عن وجه ليلة لحطت قناع اللّيل عن قـمر يسري

اللّيل في هذه القصيدة كان المحور الذي ارتكز عليه الشاعر في مدح القائد سواء كان الممدوح تختاله السباع والوحوش أو الظلام تعم الحياة مع الزخرف و الأنجم والسماء سيما وأنه

يمزق جناح اللّيل وهو يرفع جناح النسر المسيطر على الموقف والنسر يحفظ فراخه. كل هذا يحدث في اللّيل المظلم تارة والمزخرف تارة أخرى بالنجوم والأقمار, فالشاعر يجمع بين المعاني المختلفة لليل في البيت الواحد سيما وأن اللّيل أصبح مرتعا للهو عند الشاعر ولكن هذه الفرصة تنتهي بمجرد طلوع الفجر, الملفت للنظر كيفية طلوع الفجر فالتمزيق دلالة على إنهاء الوضع الذي كان يتمناه إشارة إلى الجبر والخضوع لموقف لايعجبه. على عكس المطلب فالشاعر يطلب استمرار اللّيل ودوام حاله, وبمجرد طلوع الفجر وبزوخ النهار يشيب له حال الشاعر.

وبعد المقدمة الطويلة من الوصف والوقوف على الطبيعة الصامتة يأتي الشاعر إلى ما كان يبغيه من صورة رائعة لمدح القائد مشبهاً اياه بليلة القدر أو اللقاء به في تلك اللّيلة الطيبة الشريفة فهو واسطة العقد وخير أهل زمانه, فالمخاطر والمصاعب والخوف والظلام والمسير في اللّيل كلها معان تدل على نية الشاعر في إضفاء أجواء لمدح الممدوح فيها شئ من القوة والتحكم فعرين الليث وجناح النسر والتكرار في استعمال اللّيل ومخاطر السير فيه تدل على ذلك دون أدنى الشك سيما و أن كلمة التمزيق أيضاً قد أستعمل في السياق نفسه للاستدلال على هذه الأجواء الصاخبة حتى يأتي لمديح القائد, وكأن إعداد هذه الأجواء كانت لها علاقة وثيقة برتبة الممدوح ومكانته العسكرية. وقال يمدح الفقيه أبا أمية[٣٦]:-

فما ترعد الأسياف إلّا مهابـة لمؤتمر في الله ينهى وينهيـــــد
ولا تكسف الأقمار إلّا حسادة لمضطلع بالمجد يسعى فيسعد
ويذكي وراء اللّيل عينا حديدة ينام بها الدين احتراسا ويسهد

السيوف لاتخشى إلّا سيفه وهو الذي يخشى في سيفه أوامر الله ولايعصيه وهو سباق للقاء العدو ومحاربته ويستمر الشاعر في تشبيه المدوح باللّيل والقمر فحساده يريدون غيابه, كما يحسد القمر المنير ولا حسد إلّا إلى ذي الرفعة, فيريد الحساد ما يريدون من أجل النيل من رعيته وناسه ويأبى الفقيه إلّا بحماية رعيته بعين ساهرة من الحديد كي ينام الرعية آمنين. مظاهر القوة أيضاً كانت الأساس الذي ارتكز عليها الشاعر في مدح الممدوح فترعد السيوف والهيبة والمهابة والمجد و العين الحديدي والاحتراس كلها تدل على حب الشاعر في إثارة جو من الهيبة والقوة في مدائحه مستعينا في ذلك باللّيل وأدواته من أجل ذلك. وقال يمدح أبا الحسن بن الربيع صاحب قرطبة[٣٧]:-

وسألت فيك اللّيل عن سنة الكـرى حتى أجابني الصّبـاح سرارا
وسحبت أردان الظلام على السرى طولاً ومـــــزقت الذيولا عيثارا

ووطئت دون الظّبي غابة ضيغـم غيران أنجد في الوعيد وغارا

يسأل اللّيل حتى يجيبه الصباح ملحاً وهو يسير طوال اللّيل حتى ينقض ويهل الصباح ليصل إلى غابة الأسد قاصداً بذلك الممدوح, فالأسد كان غيوراً وذا نجد في همته و صفاته. فالتضاد بين اللّيل والصباح في القصائد التي يقصد بها الممدوح ما هي إلّا لتعلية شأن الممدوح. ويقول في مثال آخر[٣٨]:-

وقد لاح وجه الصبح يندى كأنــه وراء قنــاع اللّيل وجــه بشيـر

التضاد قائمة هنا بين الصبح واللّيل على الوتيرة السابقة نفسها, وبراعة الشاعر تظهر في مدحه لأبي الحسن عندما شبه وجه الصبح بوجه الممدوح مستعملا الوجه للصبح والقناع للّيل, فالوجه فيه الحقيقة والضياء والحسن على عكس من ذلك فاللّيل فيه الزيف والظلام والاصطناع, قال وكتب بها إلى الأمير أبي إسحاق[٣٩]:-

وما كان أشهى ذلك اللّيل مرقدا وأندى محيا ذلك الصبح مطلعـا

وأقصر ذاك العهد يوما وليلــة وأطيب ذاك العيش ظلاً ومرتعا

كأني لم أذهب مع اللهو ليلــة; ولـــم أتعاط البابلــي المشعشعـا

مادامت المقابلة قائمة عند الشاعر بين اللّيل والصباح كان من الضروري أن يحاول المقابلة بين شطري حياته عندما كان عند الأمير وبعد فراقه, فاللّيل والصبح في ظله كان أطيب وألذ حتى أصبح من شدة طيبه يومه وليله أقصر من ذي قبل مع طيب عيشه في مرتعه وظله إلّا أنه بعد فقد كل هذا الطيب والأيام الحلوة كأنه ما عاش وما ذاق لذة البابلية وطيبة العيش في ظله, وما نلحظه في هذه الأبيات الثلاثة إلى جانب استخدام الشاعر المقابلة بين نمطين من الحياة استعماله التعجب مما آل إليه الحياة بعد ذلك العهد. وقال يمدح أبا إسحاق ابن أمير المسلمين ويذكر محاصرته لحصن المؤريلة ويهنئه بتلده كورة اشبيلية[٤٠]:-

وعجت عليه عوجة الصب شاقه بريق تراءى آخـــر اللّيل يلمــع

ولـــم أرد الاوشـــال أنقـــع غـلـــة ويمنى أبي إسحاق للبحر منبع

استخدام الشاعر لليل ما كان إلّا لإبراز حسن وبريق ممدوحه فهو بعد أن نشأ وعاش في ظله فيما سبق عاد إليه منجذبا نحو بريقه فالأوشال لا قيمة لها عند بحر عطاء أبي إسحاق وكرمه, فتشبيه العطاء والكرم بالبحر من المعاني المطروق في الشعر العربي بشكل واسع ومبتذل تدل على نسج الشاعر على منوال شعراء المشارقة في الأسلوب والمعنى, ويقول في قصيدة أخرى[٤١]:-

اللّيل إلّا حيث كنت طويل; والصبر إلّا منذ بنت جميل

والنفس مالم ترتقبك كئيبة ; والطرف مالم يلتمحك كليل

الليالي الطويلة قصيرة فقط بذكره والصبر حلو وجميل بظهوره والنفس كئيبة مريضة في بعده والجسم كذلك مالم يلتقيه, فالممدوح يمثل للشاعر المثل العليا فالليالي الطويلة تقصر بذكر خصاله وصفاته فالصبر هين مادام عاقبته الوصل. لقد استعمل الشاعر اللّيل في مدائحه بمعانٍ مختلفة ولكن على الأغلب كان القصد من ذكر اللّيل إثبات ضده وعكسه فإنه إن كان مظلماً موحشاً فالممدوح ضياء مؤنس. و شبه جمال اللّيل بنجومه وقمره وضيائه بالممدوح جمالا, أنظر إلى هذا النص الشعري[٤٢]:-

آليت إلّا أن تسير مـــع الفضـــل وأزمعت إلّا أن تصم عن العذل

فنبت مناب البدر في ليلة السرى وقمت مقام الوبل في البلد المحل

الفضل والكرم والعطاء عنوانه وصفته فهو خلق على الفضل وعازم على الابتعاد عن العذل واللوم فإنه قام مقام البدر جمالاً ونوراً وضياءً في اللّيالي التي تطول فيها المسير وإنه أينما حل يعم الخير والكرم والعطاء كالمطر الذي يشتد على محل هطوله. يستخدم الشاعر الحلف واليمين من أجل اظهار عزم الممدوح على الشيء الذي ينويه ويعتزم القيام به مهما كان الوضع. ومن ثم شبه جمال الممدوح بالبدر بل ذهب إلى أبعد من ذلك فهو ينوب عن القمر في الليالي التي لا يظهر القمر فيه ,فالنيابة هنا أقوى من التشبيه لأنه يقوم مقامه سيما وأنه كالمطر الوابل عطاءً وخيراً أينما حل.

٤- الليل في قصائده الرثائية:-

لقد أقدم ابن خفاجة وفي جرأة تامة على المزج بين الرثاء والطبيعة ولقد استطاع أن يقدم لنا شيئا جديدا من خلال محاولته تلك, الذي لا شك فيه أن الطبيعة الفنانة تمثل مولد الحياة وبهجتها وغناءها وسمتها والرثاء يمثل نهاية الحياة وآلامها, وبكاءها والحسرة عليها, ومن ثم كان الجمع بين الطبيعة والرثاء جمعا بين نقيضين[٤٣], قال الشاعر وهو يرثي بعض إخوانه ويندب ما تقضى من زمانه ويمدح الوزير أبا العلاء بن زهر[٤٤]:-

وهـــا أنا تلقانـــي الليالي بملـــئها خطوبا وألـــقى بالـــعويل اللّياليـــا

ضمان عليها أن ترى القلب خافقا طوال اللّيالي أو ترى الطرف داميا

أأحبـــابنا بالـــعدوتين صممتـــم بحكم اللّيالـــي أن تجيبـوا الـمناديا

تقضى وألقى بين جنبيّ لـــوعـــةً أباكي بهـــا أخـرى اللّيالي البـواكيا

كأني لم أنس إلـــى اللهو ليلـــــة ولم أتصفّح صفحـــــة الدّهر راضيا
وكانت تحايانا على القرب والنّوى تطيب علـى مـــــرّ اللّيالـي تعاطيا
أحنّ إذا ما عسعس اللّيـل جنـــة تذيب الـحوايا أو تفضّ الـــــتّراقيا
وعلّلّ بريّا الـرّند نفساً عليلـــــــةً مع الصّبح يندى أو مع اللّيل هاديا
فقل للّيالي الخيف: هل من معرّج عـلينا و لـو طـيفاً سقيت لياليـــــا
وأحرزفي أخـــرى اللّيالي فضائلاً تعدّ علـى حكـم المعالـي أواليـــــا
لـقيت بـــه واللّيل رائش نبلـــــه أخـا فهم لايخطئ الـرّأي راميـــــا
ترى فرقد اللّيل السّرى منـه ثالثاً وترعى بـه بدر الـدّجنّـة ثانيـــــا

إنَّ براعة الشاعر في الوصف وتوظيف ذلك في مختلف الأغراض الشعرية كان دافعا لكي يجعل الرثاء مسرحاً لوصفه لمظاهر مختلفة من الطبيعة الصامتة والحية وعلى الخصوص اللّيل سيما وأن المعاني التي تدل عليها اللّيل إلى جانب ما ذكرناه من الجمال والقبح, من السلب والإيجاب تدل على الغموض والوحدة والنسيان والعصيان, فها هي اللّيالي الطويلة تداهم الشاعر وأي مداهمة وهي محملة بخطوب ومشاكل كثيرة تجر وراءها العويل والنحيب, لذلك نجد القلب خافقا متحسرا طوال اللّيل على ما فقده الشاعر من قيم مادية ومعنوية. فالمشاكل بلغت حداً بالشاعر أصبح الصبر معه مستعصياً ومحالاً سيما وأن ظلام اللّيل والنجم قائم بكل غوامضه وسكونه, فالأمر قد قضي وما بقى للشاعر سوى البكاء والسهر حزناً طوال الليالي وكأن الشاعر قد نسى اللّيالي التي قد قام فيها باللهو والمرح والمتعة, فالصداقة حيث كان الوصل والقرب والتحية تدوم طوال الليالي.

لقد ذكرنا معاني كثيرة ومختلفة للّيل عند الشاعر وفي هذه الأبيات نجده يربط بين اللّيل وظلمته بالحنين إلى أناس قد سبقوا سيما وأن الروح تخرج مع الحنين إليهم. ويستمر الشاعر بالمقابلة بين الصبح واللّيل ويخاطب اللّيل بتحديد مكان الفراق سيما وأن الفراق كان فراق الحبيب للحبيبة تحمل في ثناياها شحنات من العواطف والأحاسيس التي تدفع بالشاعر لطلب اللقاء وإن كانت طيفاً أو خيالاً. فالشاعر على الرغم من استخدام اللّيل في هذه الابيات من أجل الرثاء إلّا أنه كان بارعا في تنظيم معاني المدح والفخر والرثاء مع الوصف فهو عندما يذكر محاسن من يذكرهم يجعل اللّيل عنصراً من عناصر التأكيد على علو شأنهم وعزمهم, فعلى الرغم من ظلمة اللّيل عندما لقاهم إلّا أن رشد عقلهم وسداد رأيهم واضح كل الوضوح. ويقول في مرثية أخرى يرثي فيها الوزير أبا ربيعة[٤٥]:-

شراب الأماني لـــــو علمت سراب وعتبى اللّيالي لـو فهمت عتـــاب
إذا ارتجعت أيدي اللّيالي هبـاتهـــا فغاية هاتيك الـهبات ذهـــــــاب
دعا بهما صرف اللّيالي إلى البلى فكل الـــــــذي فوق التراب تراب
أقلب طرفي لا أرى غير ليلـــــــة وقد حط عن وجــه الصباح نقاب
فحتى متى تبري اللّيالي سهامهـــا وحتى متى أرمى بهـــا فأصاب
أجلت طباعي فيه فالأنس وحشـة طوال اللّيالي والنعيم عـــــــذاب
كأن لم نبت في منزل القصف ليلة نجيب بها داعي الصبا ونجـــاب
نهضنا بأعبـاء اللّيالـي جزالـــــة وأرست بنا في النائبات هضـــاب

بدا الاضطراب النفسي والعاطفي على الشاعر من البيت الأول في هذه المرثية الرائعة, فالأمنية شراب أراد الشاعر أن يستقيها لكن الشراب كان سرابا كما كان نهاية اللّيل عتابا فالجناس كان من الفنون البلاغية التي كثيراً ما استخدمها شاعر في قصائده ولكن الجناس كان ناقصاً, فما كان عطايا اللّيالي سوى الرجوع و الذهاب بالعطايا والخيرات في نهاية كل شئ في تلك اللّيالي الحزينة ذهاب إلى الفناء والانتهاء والحاصل تحصيل كما كان التراب ترابا فحق كل شي الفناء والعدم. فتشاؤم الشاعر بلغ به الحد إلى اليأس من المستقبل فالوجهة أينما كانت ليل وكأن النقاب قد حط على وجه الصباح. فالشاعر قد خلق جواً من الحزن الدائم غير الزائل مع هول الموقف واليأس من المستقبل فإن الصباح على غير عادته بعيد عن الطلوع والظهور كأن الحزن على الوزير جعل الدنيا مظلماً أسوداً دليلاً على العزاء والحزن, فاللّيل أصبح هدفا للشاعر يصوب نحوه سهام الاتهامات والتشاؤم, إذ يسأل عن سهام اللّيل وحتى متى يستمر بتصويبها, والتصويب هنا على الهدف أي الشاعر والتصويب غالبا كان ناجحا.

ويستمر الشاعر في خلق الأجواء التي تدعوا إلى القلق والحزن تعبيراً عن حزنه لفقد صديق وحبيب فاللّيالي تطول بها والأنس يصبح وحشة مع طوله وما كان نعيماً يصبح نقمة عذابا, ويعود ويتعجب مما آل إليه الوضع ويقول كأننا لم نعش النعيم ولم نلتذ بطيبها تلك اللّيالي التي سبقت عندما كنا نجيب الداعي ويجاب دعوانا. يستمر الشاعر على الوتيرة المتصاعد من أجل خلق أجواء الحزن مستخدما من أجل ذلك المقابلة بين اللّيل والصباح, بين الخير والشر, بين السابق واللاحق وبين ما كان ويكون مستعملاً لغة سلسة مع كثرة استخدامه للفنون البلاغية المختلفة سيما وأن الشاعر كان معروفا باستخدامه لتلك الفنون في أغراضه الشعرية المختلفة بين حين وآخر.

يبدو على الشاعر التوفيق التام في استخدام وصف اللّيل من أجل التعظيم و تهويل الرثاء في أغراضه الشعرية المختلفة سيما وأن اللّيل يدل على الغموض والظلام والفناء والعدم على عكس النور والضياء والمستقبل والحياة التي تكمن فيها معاني الصباح والنهار والضياء فهو عندما يرثي معبراً عن حزنه يستخدم طاقات فنية هائلة من أجل جعل القصائد أكثر وقعاً على النفوس. فالشاعر كان ناجحاً في استخدام اللّيل والوصف في قصائد الرثاء بشكل لافت للنظر قياساً مع استخدامه للّيل في الأغراض الشعرية الأخرى كالمديح والوصف والفخر سيما وأن الوتيرة التي استخدم فيها اللّيل كانت تختلف حسب الأغراض الشعرية التي تناول فيها الشاعر اللّيل. أنظر الى شعره وهو يرثي محمد ابن أخته وقد مات في أغمات[٤٦]:-

وإني إذا ما اللّيل جاء بفحمة لأوري زناد الهم فيها فأقدح
ففي ناظري للّيل مربط أدهم وفي وجنتي للدمع أشهب يجمح
فيا عارضا يستقبل اللّيل واكفا ويسري فيطوي الأطولين ويمسح

اللّيل كان يذكر الشاعر بفاجعته ويشعل فيه جذوة المصيبة من جديد فاللّيل الطويل كان أشد وطأة على الشاعر بظلمته ووحشته سيما وأن الظلمة تلتهم كل شيء من حول الشاعر والدموع تسيل دما على وجنته فهو يستقبل اللّيل بهذه المشاعر والعواطف التي تحمله ما لاطاقة له بها. فاللّيل هنا مرتبط بالسوء والحزن والغم والدموع, وقال يرثي الوزير أبا محمد بن ربيعة[٤٧]:-

فوراء ستر اللّيل مضطرم الحشا لايستقر به هناك مهاد
عفت البناة على اللّيالي والبنى وتلاحق الأمجاد والأوغاد
بأغر وضاح الجبين كأنه تحت الدجنة كوكب وقاد
واللّيل فسطاط هناك مطنب ضربت له من أنجم أوتاد

أصبح اللّيل في قصائد الرثاء عند الشاعر دافعا لتذكر من فقدهم من الأحباء والأصدقاء والأخلاء, فالشاعر حزين على فقيده الوزير وكيف لايضطرم قلب الشاعر فالموت وراء كل شيء ولايفرق بين العزيز والحقير, فالموت لامحالة نازل بهم, وما نزل بقوم إلّا أخذهم. فالوزير وضاح الجبين صادق اللهجة فكأنه نور يضيء دجنة اللّيل, ولكن أي نور قد استخدمه الشاعر فهو كالنجم هاديا لأصدقائه وكأنه أراد أن يبين لنا مدى أهمية فقيده لأنه بنوره هو الهادي الى الحق والصواب. ولكن المشكلة أكبر من ذلك فكأن اللّيل قد خيم عليه, لا ينفك عنه, والنجوم

صارت أوتاداً! وهذا تشبيه مؤكد , تعددت طرق التشبيه, وصار وجه التشبيه مأخوذا من متعدد. وقال يرثي الوزير أيضاً[٤٨]:-

ويركب من ريح الصبا متن سابح كريم ومن ليل السرى ظهر أبلق
فيهدي إلـــى قبر بحمص تحيـة متى تحتملها راحـــة الريح تعبق

يركب الشاعر الفرس والخيول السوابح ويتحمل عناء السفر ليلاً حتى يصل إلى حمص الأندلس أي اشبيلية حيث قبر الوزير. فهو ما يشتاق إلى حمص وإلى النجوم فيها إلّا لأن الوزير يرقد هناك. ما يهمنا على العموم استعمال الشاعر للّيل وفي أغراض شعرية مختلفة وفي هذا المثال أيضاً نجد الشاعر يستخدم اللّيل في المعاني السابقة سيما وأن اللّيل بظلمته وغموضه يدل على العناء والمشقة وعلى الخصوص في السفر والترحال هذا مما دفع بالشاعر على ايراده في هذا المعنى. استخدامات الشاعر للّيل في قصائده بلغت حداً كبيراً إذ قليلاً ما نجد قصيدة أو مقطوعة شعرية خالية من وصف اللّيل , أنظر إلى هذا المثال وهو يصف فيه اللّيل[٤٩]:-

واللّيل وضاح الجبيـ ـن قصير أذيال الثياب
فقنصت منه حمامة بيضاء تسنح من غراب

اللّيل مقمر أي وضاح الجبين, ليس مظلماً واللّيل قصير, فهو ليل يوم في الصيف, حيث استعمل الشاعر ضياء اللّيل في وصفه هذا على عكس المعروف من المعاني ودلالته من الظلمة والوحشة لكي ينال ما كان يبتغيه من المعاني, ويقول في اللّيل أيضاً[٥٠]:-

وليل كما مـــد الــغراب جناحـــه وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق واللّيل فحمة شرار ترامـــى والـــغمام زنـــاد
أجوب جيوب البيد والصبح صارم له اللّيل غمـــد والمجر نجـــاد
ولما تفرى مـن دجى اللّيل طحلب وأعرض من ماء الصباح ثماد
حننت وقـــد ناح الحمام صبابـــة وشق مـــن اللّيل البهيم صداد

إنَّ سواد اللّيل كان مسرحاً لوصف الشاعر واستعمل من أجل ذلك سواد جناح الغراب للاستدلال على السيطرة و وحشية الليل هنا, سواد اللّيل كان كالحبر في المداد يسيل على وجه السجل لكي يسجل صفحات التأريخ, سيما وأن اللّيل كان محفلاً للعشاق والغرباء. فالشاعر يجوب الصحارى قاطعاً أسفاراً حيث الصبح كان كالسيف في غمد اللّيل على الاستعداد للاطلال إذ لابد بعد العسر من اليسر, فاللّيل يتبعه الصباح والضياء. ولما بان الصباح ولاح في الأفق

الشفق الأحمر مشعاً آفاق الشاعر مقلبا بذلك صفحة جديدة في حياته حيث بدأ يحن إلى الحمامة ونوحها وهي تشق صمت اللّيل ناحيا ما تفتقدها. ويقول في اللّيل أيضاً[٥١]:-

وغمامة لم يستقل بهـا الســـرى فمشت على الظلماء مشي مقيد
في ليلة قد بات يلحس تحتهـــا حبراً لسان البـــارق الـــمتوقـــد
نسج الضّريب بها الظّلام حمامة فـابيضّ كـــلّ غراب ليل أسود

تسير السحابة سيراً حثيثاً بطيئاً وهي تحمل الغمام ليلاً, فالسير والمشي مقيد بقيود اللّيل, فالغمامة قريبة وكثيرة تكاد تلمس الأرض بما فيها من المطر التي تشبه الحبر في السواد. رسم الشاعر لوحة فنية رائعة حيث أن الغيوم والمطر وإن كانت تدل على الخير والبركة والعطاء والسخاء في ديوان الشعر العربي هنا تدل على السواد والظلمة ولكن السحاب بما يحمله من الثلج والصقيع جعل السواد بياضاً مشيرا الى اليسر بعد العسر والضياء بعد الظلمة والنهار بعد اللّيل. ويقول الشاعر في قصيدة أخرى[٥٢]:-

ربّ ابن ليـل سقانا والشّمس تطلع غـرّه

استعمل اللّيل هنا كناية عن سواد البشرة عند الشخص الذي وصفه الشاعر, فالشاعر أكثر من استعمال اللّيل في قصائده حتى بلغ به الحد إلى درجة استخدامه كناية عن الأوصاف سيما وهو يمدح أو يرثي. ويقول في قصيدة أخرى كتب بها إلى الفقيه أبي أمية وقد وهت رجله بعثرة[٥٣]:-

وليل قـــدحت به عزمة قدحت الظّلام بها فـاضطرم
كأنّي وقد خبط اللّيل بـــي قـــدحت به شعلـة في فحم
ويا ربّ ليل جنيّ الـــمنى شهيّ اللّمى مستطـاب اللّمم
لهوت ودون التماح الصّباح ظـــــلام سجا وغمام سجم
وقد كتم اللّيل سرّ الهــوى ونمّت بمـا استودعته النّسم

اضطرم قلب الشاعر في تلك اللّيلة وقد قدحت بالظلام وكأن الظلام قد داهم الشاعر حتى أشعل من الظلام النار ويتمنى الليالي التي يسهر فيها ويظفر بمراده من اللهو والحب والعشق, فهو يلتهي ويلهو ولا يبالي بالصباح والنهار حتى سال الظلام. استخدام الشاعر للعبارات التي تنم عن القوة والسيطرة والخضوع في الوقت نفسه في هذه الابيات, فاللّيل يقدح ويخبط ويشعل والظلام يهطل كالغمام. ويستمر حيث يشير من معاني اللّيل الى الكتم والسر والهوى فهي كلها

معانن تدل على إمكانية الشاعر في جمع معاني مختلفة لليل في قصيدة واحدة. وفي معنى آخر من معاني اللّيل نشير الى قصيدة الشاعر في القمر[٥٤]:-

لَقَد أصَخْتُ إلى نجواكَ مِن قَـمَرِ   وَبِتُّ أُدلجُ بَينَ الـــوَعيِ والنَّـــظَرِ

لا أجتَلِي لُمَحاً حَتَّى أعِي مُلَـحاً   عَدلاً مِنَ الحُكمِ بَينَ السَّمعِ والبَصَرِ

وَقد مَلأتَ سَوادَ العينِ مِن وَضحٍ   فَقَرِّطِ السَّمعَ قُـــرطَ الأُنسِ مِن سَمَرِ

قالها الشاعر، وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره، فجَعَل يُطرِقُ في معنى كُسوفِهِ وإقمارِهِ، وعِلَّةِ إهلالِهِ تارَةً وسِرارِهِ، ولزومه لمركزه مع انتقامه في مَدارِهِ، مُعتَبِراً بحَسبِ فَهمِهِ واستطاعته، ومُعتقداً أنَّ ذلكَ معدودٌ في عبادة (الله) وطاعته. فعناصر الطبيعة لا تنتهي في شعر ابن خفاجة، فهناك الطيور والبرق والجو والشمس والبدر وغيرها، وقد كثرت في الأندلس الرياض والبساتين وصدحت في جنباتها الطيور وتوزعت في أنحائها الجداول، وباتت حواضر الأندلس تؤلف عقداً من الحدائق وهذا ما أوجد لدى شعراء الوصف ميلاً إلى وصف الأزهار فتركوا قصائد تدخل في باب شعر النوريات وبلغ ولعهم بمباهج الزهر إن بقيت صوره مطبوعة على صفحات خياله.

الخاتمة

جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس، بل أن حياة المجتمع الأندلسي أثرت أيضاً في هذا الشعر، الذي يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، ولكون الشعر عندهم يصف طبيعة الأندلس سواء الطبيعية أو الصناعية، فهم يصورونها عن طريق الطبيعة كما أبدعها (الله) في الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم، ويصفونها كما صورها الفن لديهم في القصور والمساجد والبرك والأحواض وغيرها. أفرد شعراء الطبيعة في الأندلس قصائد مستقلة ومقطوعات شعرية خاصة في هذا الغرض بحيث تستطيع هذه القصائد استيعاب طاقة الشاعر التصويرية وخياله التصوري , فلم يترك الشاعر زاوية من زوايا الطبيعة إلّا وطرقها . و تُعد قصائد الطبيعة في الأندلس لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال تشد انتباه القارئ وتثير اهتمامه . و كما هو كان مألوفا عن الشعر العربي تنظيم قصائد في أغراض مختلفة بدا شعر الطبيعة يخرج عن المألوف والمعهود بتنظيم المقطوعة التي تستوعب طاقة خيال الشاعر وتصور عطاء شاعريته غير عابئ بعدد الأبيات أو النظام التقليدي للقصيدة إلّا في حالات قليلة جدا. والشاعر لم يترك لمحة من لمحات الطبيعة أو زاوية من زواياها أو موضوعا من موضوعاتها إلّا طرقها برشاقة و براعة وذكاء وافتنان.

وبعد تزايد اهتمام الشعرء بشكل واضح لشعر الطبيعة نجده يحل محل أبيات النسيب في قصائد المديح حتى أصبح اللّيل معيد الذكريات ومذكر الشاعر بالأيام الخالية السابقة بحلاوتها وطيبها وكان الشاعر إذا أراد أن يمدح الممدوح مذكرا بذلك أيامه السابقة في ليالي الجمع والأنس والتجمع والإخوان والأصدقاء, وبما أن الذكريات تكون حلوة أو سيئة فإن ما يستذكره الشاعر من الذكريات هي طيبة وذي عهد الشباب والمرح تدل على اقتراب الشاعر من خلق جو من السعادة والفرح, و قصيدة الرثاء أيضاً لا تخلو من وصف الطبيعة حتى أصبح اللّيل في قصائد الرثاء عند الشاعر دافعا لتذكر من فقدهم من الأحباء والأصدقاء والأخلاء. و يبدو على الشاعر التوفيق التام في استخدام وصف اللّيل من أجل تعظيم و تهويل الرثاء في أغراضه الشعرية المختلفة سيما وأن اللّيل يدل على الغموض والظلام والفناء والعدم على عكس النور والضياء والمستقبل والحياة التي تكمن في معاني الصباح والنهار والضياء و أصبحت الطبيعة بالنسبة لابن خفاجة ملاذاً وملجأ له يبث فيه همومه وأحزانه وأفراحه إلّا أن جانب الفرح والطرب غلب على وصف الطبيعة عنده فيفرح كما يفرحون ويحزن كما يحزنون. ولقد ارتبط وصف

الطبيعة عنده بالغزل والخمر ارتباطاً وثيقاً فوصف الطبيعة هو الطريق إليها فكانت مجالس الغزل والخمر لا تعقد إلّا في أحضان الطبيعة . و المرأة في قصائد الشاعر صورة من محاسن الطبيعة , والطبيعة ترى في المرأة ظلها وجمالها , إذ أن الغزل كان من الأغراض الشعرية التي كثيرا ما لجأ إليها الشاعر في استخدام اللّيل سيما وأن وسائل اللقاء بحكم السبل المتاحة كانت تقتصر على الليالي.

قلما نجد الشاعر يتناول اللّيل في قصائده مستقلة و إنما نجده يمزج ويشاكل بين اللّيل وأدوات الطبيعة الأخرى. فقد كانت مهمة إبن خفاجة تكثيف كل تلك المظاهر التي كانت موزعة عند الآخرين, إلّا أن دور الشاعر ذهب إلى أبعد من ذلك إذ زاد في التشخيص وفي الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة واعتمد في ذلك وسائل فنية جديدة متصلة بملكات خاصة لديه ولم يكتف بأن يربط الطبيعة بالحب ومجالس الخمر, بل ربطها بكل الأغراض الشعرية واستعمل من أجل ذلك اللّيل ومعانيه.

الهوامش

[١] أدباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث, بطرس البستاني, دار الكشوف ودار الثقافة, بيروت–لبنان, الطبعة السادسة ١٩٦٨,ص٣٧.

[٢] تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة), إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت–لبنان ,الطبعة الاولى١٩٦٠,ص٩٢.

[٣] الأدب العربي في الأندلس, الدكتور عبد العزيز عتيق, دار النهضة العربية, بيروت–لبنان ص٣١٧.

[٤] الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه, الدكتور مصطفى الشكعة, دار العلم للملايين, بيروت–لبنان, الطبعة الرابعة ١٩٧٩, ص ٢٧٠.

[٥] الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلاف, الدكتور أحمد هيكل, دار المعارف, القاهرة– مصر, الطبعة التاسعة ١٩٨٥, ص٢٧٨.

[٦] الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي, أحمد حاجم محمد, رسالة ماجستير– كلية الاداب\جامعة بغداد ١٩٨٣, ص٢٩٤.

[٧] الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة, ص٢٩٥.

[٨] في الأدب الأندلسي, جودت الركابي, دار المعارف بمصر, الطبعة الثالثة ١٩٧٠, ص١٠٦.

[٩] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, أحمد بن المقري التلمساني, بتحقيق الدكتور احسان عباس, دار صادر, بيروت–لبنان, الطبعة الخامسة ٢٠٠٨, ص٥٣٦١١.

[١٠] تأريخ الأدب الأندلسي, عصر الطوائف والمرابطين, د. احسان عباس, دار الثقافة, بيروت–لبنان, الطبعة الخامسة ١٩٧٨, ص٢٠٤.

[١١] في الأدب الأندلسي, ص١٠٨.

[١٢] نفح الطيب, ص٦٨١١١.

[١٣] الديوان, ديوان إبن خفاجة, تحقيق عبدالله سنده, دار المعرفة, بيروت–لبنان,الطبعة الاولى ٢٠٠٦, ص٤٨.

[١٤] في الأدب الأندلسي, ص١١٢.

[١٥] إبن خفاجة حياته وشعره, اعداد ضحى عبدالعزيز, دار كرم بدمشق للطباعة والنشر, ص٤.

[١٦] تأريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين, ص٢٠٧.

[١٧] الديوان, ص٣٠.

[١٨] مختارات من شعر الحب والغزل في الأدب الأندلسي, د. محمد محمود المندلاوي, دار المعرفة, بيروت–لبنان, الطبعة الاولى ٢٠٠٨, ص٢٩.

[١٩] الديوان, ص١١–١٢.

[٢٠]الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه, ص٢٥٥.

[٢١] الديوان, ص١٢٥.

[٢٢] نفس المصدر, ص٣٧.

[٢٣] نفس المصدر, ص٢٠٩-٢١٠.
[٢٤] نفس المصدر, ص ٤٢.
[٢٥] نفس المصدر, ص١٢٠.
[٢٦] نفس المصدر, ص٣٠٧.
[٢٧] الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه, ص٣٦٣.
[٢٨] الديوان, ص١١٤.
[٢٩] نفس المصدر,ص ١٢٥.
[٣٠] نفس المصدر, ص٢١٢.
[٣١] نفس المصدر, ص٢٩٤.
[٣٢] نفس المصدر, ص١٨.
[٣٣] نفس المصدر, ص٥٤.
[٣٤] نفس المصدر, ص٥٥-٥٦.
[٣٥] نفس المصدر,ص١٤٢-١٤٧.
[٣٦] نفس المصدر, ص١٠٠.
[٣٧] نفس المصدر, ص١٦٣.
[٣٨] نفس المصدر, ص١٦٨.
[٣٩] نفس المصدر, ص١٩٠-١٩١.
[٤٠] نفس المصدر, ص ١٩٨
[٤١] نفس المصدر, ص٢٥٠.
[٤٢] نفس المصدر, ص٢٥٧.
[٤٣] الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه, ص٣٥٥.
[٤٤] الديوان, ص٣٣١.
[٤٥] نفس المصدر, ص٦١.
[٤٦] نفس المصدر, ص٨٤-٨٥.
[٤٧] نفس المصدر, ص١٠٤-١٠٦.
[٤٨] نفس المصدر, ص٢٢٤.
[٤٩] نفس المصدر, ص٣٠.
[٥٠] نفس المصدر, ص٩٠-٩١.
[٥١] نفس المصدر, ص٩٥.
[٥٢] نفس المصدر, ص١١١.
[٥٣] نفس المصدر, ص٢٨٨-٢٨٩.
[٥٤] نفس المصدر, ص١٣٩-١٤٠

The Night in the Poems of Ibn khafaja

Asst. Prof. Dr. Goran Salahaddin Shukur
College of Languages- University of Salahaddin

Abstract

The research paper deals with the poems of a famous poet, Ibn-Kafadga, who tackled the themes of life and nature throughout his poetry. He presents nature and its beautiful landscape in a very clear and optimistic way which is far away from ambiguity and complexity. In addition, the poet has used night and its meaning to express his different poetic purposes. In the sense that, the meaning of night in praising or commendatory poems differed from love poetry or flirtation poems . For that reason, we tackle different types of poems to make the image clear for the readers.